الابـادة النازية لليهود

أسبابها التاريخية والحضارية

د. عبد الوهاب محمد المسيري

من الاشكاليات الاساسية في دراسة وضع اليهود في أوروبا محاولة تحديد الاسباب التي أدت الى اختفائهم تماماً تقريباً، والى «حل» المسألة اليهودية في وسط أوروبا وبولندا بهذه الطريقة الجذرية التي لم تطرأ على بال أحد. وثمة ما يشبه الاجماع، الآن، على ان عملية الابادة النازية هي السبب الرئيس (وليس، بالضرورة، الوحيد) الذي أدى الى اختفاء أهم مراكز الاقليات اليهودية في العالم، والذي كان، أساساً، في بولندا. والتواريخ الصهيونية، أو المتأثرة بها، تكاد تحول قصة الابادة الى مشكلة ميتـافيـزيقية تستعصي على الفهم، وسر من الاسرار يتحدى العقل. ومع التسليم بأن هذه الظاهرة مركّبة، الى حد كبير، وان تفسيرها الكامل، والتام، أمر مستحيل (وهي، في هذا، لا تختلف كيفياً عن معظم الظواهر الانسانية الاخرى)، الا ان من الممكن حصر بعض العناصر التاريخية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، التي قد تساهم في تفسير ما حدث الى حد كبير؛ وفي القاء الضوء عليه. ولعلنا لو وضعنا الظاهرة في سياقها الغربي والالماني العام، بدلاً من رؤيتها من منظور يهودي ضيق، لأمكننا ان نحلّ كثيراً من طلاسمها المفروضة عليها؛ اذ ان تجريد أي ظاهرة انسانية من زمانها يحولها الى سر مغلق، أو الى مجموعة أحداث خام غير مترابطة، يمكن ان يفرض عليها أي تفسير.

وفي محاولتنا ادراك ابعاد الظاهرة، قد يكون من المنطقي ان نبدأ بأهم العناصر التاريخية في القرن العشرين، أي عملية التحديث، أو تحوّل المجتمع الغربي من النمط التقليدي الى ما يسمى بالنمـط العقلاني في الانتاج والادارة. ونحن لا نشير الى التحديث، عادة، الا عندما نتناول العالم الثالث، بسبب وضوح هذه العملية، هنا، وبسبب كونها عملية لا نزال نعيشها في وقتنا هذا؛ ولكن أرى أنها المدخل الاساسي لفهم كثير من الظواهر في العالم الغربي، منذ القرن الثامن عشر، خاصة في وسط وشرق أوروبا، على الرغم من انها تأخذ أشكالاً أكثر تركيباً «وتقدماً» هناك.

ولعـل من أهم الحقائق التي تسم عملية التحديث (أو التصنيع) في المانيا أنها بدأت في وقت متأخر قليلاً بالنسبة الى غرب أوروبا؛ اذ أنه، نظراً لعدم انجاز عملية توحيد المانيا وقيام سلطة مركزية في وقت مبكـر، ظلت الجهود الرامية الى التحديث متعثرة، ولم تحرز تقدماً، الا في سبعينات القرن الماضي، بعد الحرب البروسية ـ الفرنسية؛ اذ أنه بعد ان احرزت بروسيا انتصارها الساحق ضد فرنسـا، وبعد ضمها الالزاس واللورين، قامت بتوحيد المانيا، ثم حققت عملية التحديث من خلال قفزات هائلة، في فترة وجيزة، بحيث أصبحت المانيا من كبريات الدول الصناعية، لا يفوقها سوى انجلتـرا؛ بل انها تفوّقت على انجلترا ذاتها، في بعض الجوانب. وعادة ما يؤدي التحديث السريع الى